المكانة الاجتماعية للواعظ من خلال كتاب "سير أعلام النبلاء" للحافظ الذهبي

د.عبدالله بن إبراهيم الطويل

قسم الدعوة – المعهد العالي للدعوة والاحتساب

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المكانة الاجتماعية للواعظ من خلال كتاب "سير أعلام النبلاء" للحافظ الذهبي

د.عبدالله بن إبراهيم الطويل
قسم الدعوة – المعهد العالي للدعوة والاحتساب
جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

ملخص البحث:

كتب التراجم هي أحد أهم الأوعية العلمية لاستقاء تاريخ الدعاة، والاستفادة من تجاربهم، ومواعظهم، وعلاقتهم بالآخرين، وكتاب "سير أعلام النبلاء" هو من أبرز المصنفات التي اشتملت على كثير من تراجم الوعاظ، وقد حاول الباحث إبراز المكانة الاجتماعية الرفيعة للوعاظ من خلال هذا الكتاب، وما لهم من الأثر البالغ عند الحكام بتقديرهم، وتكليفهم بمناصب تليق بهم، وكذلك ما حازه الوعاظ من ثقة عالية عند العلماء، بالإضافة إلى المكانة الاجتماعية الخاصة لدى عامة النّاس، ولقد كان للجانب العلمي والخلقي والتعبدي الأثر البالغ، والدور الكبير في كسب ثقة الحكام والعلماء والعامة، والكتاب لا يزال بحاجة إلى المزيد من البحوث والدراسات الدعوية لإظهار ما يحويه من فوائد في هذا الباب .

الكلمات المفتاحية: الواعظ، الدعوة، الوعظ، سير أعلام النبلاء.

المقدمة

إن الحمد لله، نحمده، ونستعينه، ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا. من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له. وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله، أما بعد:

فإن للواعظ أهمية بالغة في مجال الدعوة إلى الله تعالى، وأهميته نابعة من أهمية الموعظة الحسنة وعِظم مكانتها في الشريعة الإسلامية؛ وفي نصوص القرآن الكريم تأكيد عظيم لهذا المعنى، يقول تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴾ [1] ويقول عزّ وجل ﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ يَعْلَمُ ٱللَّهُ مَا فِى قُلُوبِهِمْ فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ وَعِظْهُمْ وَقُل لَّهُمْ فِىٓ أَنفُسِهِمْ قَوْلًۢا بَلِيغًا ﴾ [2].

وقد باشر النبي صلى الله عليه وسلم الموعظة بنفسه مع صحابته الكرام في أوقات كثيرة، وأحوال متعددة، ثم نهج السلف من بعده هذه الوظيفة الشرعية، ونقل العلماء مواعظ السلف في مصنفاتهم، وكان الوعظ موكلاً به العلماء الأجلاء، قال ابن الجوزي-رحمه الله-:((كان الوعاظ في قديم الزمان علماء وفقهاء))[3].

ولما كانت كتب التراجم هي أحد أهم الأوعية العلمية لاستقاء تاريخ الدعاة، والاستفادة من تجاربهم ومواعظهم، وعلاقتهم بالآخرين كان من المهم الوقوف على أبرز هذه المصنفات، لاسيما أن هذا النمط من الكتابة التاريخية قد ظهر منذ وقت مبكر من التاريخ الإسلامي، وينقسم هذا النوع من الكتابة إلى أنماط مختلفة فمنه ما يهتم

---

(١)سورة النحل، الآية ١٢٥

(٢) سورة النساء، الآية ٦٣

(٣)تلبيس إبليس أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ، ص ١٥١.

برجال فترة معينة، أو بلدٍ معينٍ، ومنه ما يكون خاصاً بتراجم أصحاب مذهب معين، ومنه ما يكون خاصاً بصفة أو مزية معينة، وقد تميز هذا النوع من الكتب بالدقة، والاقتضاب، وغزارة الفوائد؛ حيث عني أصحابها بالحديث عن السيرة الذاتية لهؤلاء الرجال مع ذكر صفاتهم، ونزعتهم العلمية، ومصنفاتهم، ومواعظهم، ومواقفهم مع مجتمعهم، وأبرز ما تميزوا به.

وحينما كنت أطالع أحد أبرز هذه المصنفات في هذا الباب وهو سفر الإمام الذهبي العظيم الموسوم بـ"سير أعلام النبلاء"لفت نظري كثرة من ترجم لهم من الوعاظ؛ تراجم ظهر فيها إسهاب رائع، وتصوير للحياة العلمية والاجتماعية والسياسية التي عاشها الوعاظ في أوقات متفاوتة، فعقدتُ العزم على إبراز مكانة الواعظ الاجتماعية، ولاسيما أن المتأمل اليوم يلحظ التقليل من شأنه، واعتبار مكانته أقل من مكانة الدعاة وطلبة العلم، وصرنا نسمع من يقول: "ذاك ليس بطالب للعلم بل هو واعظ فحسب!"والله المستعان، وقد وسمت البحث بـ"**المكانة الاجتماعية للواعظ من خلال كتاب سير أعلام النبلاء**".

وأشير هنا إلى أن هذه الدراسة ستتوجه مباشرة إلى كتاب سير أعلام النبلاء، فلن يجد القارئ في أصل البحث مراجع أخرى، سوى إشارات يسيرة في بعض مقدمات المباحث، وذلك محافظة على شرط عنوان البحث.

التعريف بمصطلحات البحث:

١-المكانة الاجتماعية:يقصد بها المركز الذي يحتله الإنسان في محيطه الذي يعيش فيه على مستوى الأفراد والعلماء والحكام، ودرجة الاحترام والحفاوة التي يحظى بها[١].

(١) انظر:معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية،أحمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، بيروت،ط ٥، ١٩٧٨م ص٥٦.

٢-الواعظ:هو من يقوم بنصح الناس وتذكيرهم بالأوامر والنواهي المقرونة بالترغيب والترهيب، والعظات والعبر التي ترقق القلوب، وتُهذب النفوس [١].

٣-أمّا الكتاب محل الدراسة فهو"سير أعلام النبلاء"[٢]، وهو من أنفس ما صُنّف في تراجم الرجال، بل هو من أضخم كتب الحافظ الذهبي بعد كتابه "تاريخ الإسلام"، إذ شمل على تراجم لأعلام ومشاهير في فترة سبعة قرون.

والكتاب مطبوع عدة طبعات، من أجودها ما قام بتحقيقه الشيخ شعيب الأرنؤوط وآخرون[٣]، وهي في أربعة عشر مجلداً، أفرد المجلدين الأول والثاني للسيرة النبوية، وسيرة الخلفاء الراشدين.

قال الأستاذ حمد بن جاسر-رحمه الله-:((ولو قيل بأنّ هذا الكتاب هو أهم كتاب تم نشره في هذه الأعوام من كتب التاريخ الإسلامي لما كان في هذا القول مبالغة))[٤].

أمّا مؤلفه:فهو الإمام الحافظ، والمحدث الناقد، مؤرخ الإسلام، صاحب التصانيف الشهيرة، شمس الدين أبوعبدالله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبدالله التركماني الأصل، ثم الدمشقي الذهبي، المتوفى سنة ٧٨٤هـ [٥].

---

(١) انظر:مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية أبوعبدالله، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ، تحقيق محمد حامد الفقي(١٥٧/٣)، والتحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م (٢٦٠/١٤).

(٢) هذا هو اسم الكتاب كما في ديباجة مخطوطاته، وبه اشتهر،وإن كان ورد عدّة عناوين أطلقها بعض المؤلفين مثل"تاريخ العلماء النبلاء"و"سير النبلاء"و"تاريخ النبلاء" انظر:طبقات الشافعية الكبرى،تاج الدين السبكي،تحقيق د.محمود الطناحي،دار هجر، الدمام،ط٢، ١٤١٣هـ(١٠٤/٩)فوات الوفيات،محمد بن شاكر الكتبي،تحقيق إحسان عباس،دار صادر،بيروت،ط١، ١٩٧٣م (٣١٦/٣) الوافي بالوفيات،صلاح الدين الصفدي،دار إحياء التراث،بيروت،ط٢، ١٤٢٠هـ(١٦٣/٢)

(٣) وقد طبعته مؤسسة الرسالة ببيروت عدة طبعات، اعتمدت في عملي على الطبعة التاسعة، عام ١٤١٣هـ

(٤) مجلة العرب،عدد أيلول، عام ١٩٨٥م، ص٧٥

(٥) انظر مصادر ترجمته:معجم الشيوخ له،تحقيق محمد الحبيب،مكتبة الصديق، الطائف، ط١، ١٤٠٨هـ، (٢١/١)والوافي بالوفيات(١٦٣/٢)وطبقات الشافعية الكبرى(١٠٠/٩) وكتاب"الحافظ شمس الدين الذهبي"للدكتور حسن شيمساني،دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٩٩٠م.

لم أجد أدق وصفاً مما قاله عنه الصفدي–رحمه الله–:((الشيخ الإمام العلامة الحافظ شمس الدين أبوعبدالله الذهبي، حافظ لا يُجارى، ولافظ لا يُبارى، أتقن الحديث ورجاله، ونظر علله وأحواله، وعرف تراجم الناس، وأزال الإبهام في تواريخهم والإلباس، ذهن يتوقد ذكاؤه))[1].

سبب اختيار الكتاب:

أولاً: كثرة من ترجم لهم من الوعاظ حيث بلغوا(١٢٠)واعظاً.

ثانياً: مكانة الكتاب العلمية؛ إذ هو من أبرز المصادر الأصيلة التي قدمت لنا تراجم علماء السلف، وذكر فضلهم، وبيان لمؤلفاتهم، وقد جمع مادته العلمية من أكثر من"٢٥٠"مورداً.

ثالثاً: ما اشتهر به الحافظ الذهبي من تعليقات رصينة اتسمت بالإنصاف وتحري العدل، ولاسيما عند التعقب العلمي على الأخبار والآثار التي يوردها.

رابعاً: شمولية الكتاب،وهو شمول نادر أن تجده في مصنفات التراجم الأخرى، فجلّ المؤلفات في كتب الرجال إمّا أن تختص بمدينة معينة مثل"تاريخ بغداد"للخطيب البغدادي، أو تختص بحقبة زمنية محددة مثل"الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة"لابن حجر العسقلاني، أو تحدد نطاق تأليفها بمذهب أو فن معين مثل "طبقات الشافعية" للسبكي، أو "طبقات المفسرين" للسيوطي، أمّا كتاب السير فمن الناحية المكانية شمل تراجم لكافة مدن العالم الإسلامي من أقصى المغرب إلى أقصى المشرق، وهو شامل من الناحية الزمانية فقد ترجم لأعلام عبر سبعة قرون، كما أن في الكتاب شمولية في الأعلام المُترجم لهم فهو لم يقتصر على نوع معين من الأعلام، بل

(١) الوافي بالوفيات(٢/١٦٣)

شـملت تراجمـه العلمـاء والخلفـاء والـسلاطين والقـضاة والمحـدثين والوعـاظ والفقهـاء والنحاة والشعراء والفلاسفة وغير ذلك.

وقد جعلت البحث في ثلاثة مباحث على النحو التالي:

المبحث الأول: مكانة الوعاظ عند الخلفاء، وفيه مطلبان:

المطلب الأول: إجلال الوعاظ، وتقديرهم، والاستفادة منهم

المطلب الثاني:تولية الوعاظ مناصب مهمة

المبحث الثاني:مكانة الوعاظ عند العلماء، وفيه ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: ثناء العلماء على الواعظ

المطلب الثاني:توثيق العلماء للوعاظ في روايتهم

المطلب الثالث: حضور العلماء مجالس الوعاظ، وإضفاء الألقاب عليهم.

المبحث الثالث:مكانة الوعاظ عند العامة، وفيه مطلبان:

المطلب الأول:أسباب إقبال العامة على مجالس الوعاظ، وفيه أربعة فروع:

الفرع الأول:العبادة والزهد، وحسن الخلق

الفرع الثاني:الفصاحة والبلاغة وحسن الصوت

الفرع الثالث:استثارة العواطف، وترقيق القلوب

الفرع الرابع:كثرة أماكن الوعاظ، وتعدد أوقاتهم.

المطلب الثاني:مظاهر إقبال العامة على الوعاظ، وثقتهم بهم، وفيه فرعان:

الفرع الأول:كثرة الحضور

الفرع الثاني:استفتاء الوعاظ، وتدوين مصنفاتهم، والاستفادة منها

أسأل الله التوفيق والسداد، والحمد لله أولاً وآخراً.

* * *

المبحث الأول

مكانة الوعاظ عند الخلفاء

يعرض الكتاب ما يجده الوعاظ من اهتمام بالغ من الخلفاء سواء في العصر الأموي أو العباسي، وتبرز مكانة الوعاظ في أمور متعددة أعرضها في المطالب التالية:

المطلب الأول:إجلال الوعاظ، وتقديرهم، والاستفادة منهم

حظي الوعاظ في عهود مختلفة بالكثير من الحفاوة والتقريب، وكان من الخلفاء من يدعو الواعظ إلى مجلسه إذا علم تميزه وقوة تأثيره، وبلاغة عبارته، ويعدّ هارون الرشيد من أكثر الخلفاء العباسيين اهتماماً وتأثراً بالوعظ، من ذلك أن محمد بن السمّاك دخل على هارون مرّة فوعظه، فكان مما قال:((يا أمير المؤمنين إن لك بين يدي الله مقاماً، وإنّ لك من مقامك منصرفاً، فانظر أين تكون؟! فبكى الرشيد كثيراً))[1].

ومن الوعاظ الذين كان الرشيد يجلهم أبو معاوية الضرير، يقول رحمه الله:((صب على يدي بعد الأكل شخص لا أعرفه، فقال الرشيد:تدري من يصب عليك؟قلت:لا، قال:أنا، إجلالاً للعلم))[2]. ومرة سأل هارونُ منصور بن المعتمر لمّا سمع وعظه وأُعجب به:من أين تعلمت هذا؟[3].

وحضر هارون إلى عبدالله العمري الواعظ، فوعظه فبكى هارون وغُشي عليه، ووعظه أخرى فكان هارون يتلقى قوله بـ"نعم يا عم"، فلما فرغ من وعظه وذهب،أتبعه الأمين والمأمون بكيسين فيهما ألف دينار فردّها، وقال:هو أعلم بمن يفرقها عليه[4].

---

(١) (٨/ ٣٢٩)

(٢) (٩/ ٢٨٨)

(٣)انظر: (٥/ ٩٤)

(٤) انظر:(٨/ ٣٧٤)

ووعظ عمرو بن عبيد المنصورَ مرة فأبكاه، وكان يهاب عمراً ويكرمه، وكان أمر له بمال فرده [1].

وحُمل ذا النون من مصر إلى المتوكل ليعظه فبكى، قال الذهبي–رحمه الله:((وكان المتوكل مولعاً به يفضله على الزهاد)) [2].

وكان بعض الخلفاء ينتهز كل فرصة تجمعه بالواعظ، فيطلب منه الموعظة، فيسمع منه ما يجعله أكثر قرباً إلى الله، من ذلك أن هارون الرشيد دخل على الفضيل بن عياض مرّة فقال:عظني، فقال:بماذا أعظك؟ هذا كتاب الله بين الدفتين، انظر ماذا عمل بمن أطاعه، وماذا عمل بمن عصاه [3].

وابن الجوزي كان يحضر مجلسه الوعظي الملوك والوزراء والخلفاء والأئمة[4].

ووعظ مرة الخليفة فقال–رحمه الله–:((يا أمير المؤمنين، إن تكلمتُ خفتُ منك، وإن سكتُّ خفتُ عليك، وأنا أقدم خوفي عليك على خوفي منك، فقول الناصح: اتق الله خير من قول القائل: أنتم أهل بيت مغفور لكم))[5].

ولمّا مات أبو المظفر سبط ابن الجوزي واعظ الشام شيّعة السلطان والقضاة [6].

وكان نظام الملك يغلو في الفارمذي الواعظ [7].

ووصف ابن الجوزي عدداً من الوعاظ بأن لهم قدراً رفيعاً عند الحكام، بل عزاً ووجاهةً كما يقول [8]، وكان الوزير ابن هبيرة يجلّ الواعظ الزبيدي، وينفق عليه[9].

---

(١) انظر:(٧/ ٨٥)
(٢) (١١/ ٥٣٥)وانظر:تاريخ بغداد(٨/ ٣٩٢)
(٣) (٨/ ٤٣٦)
(٤) انظر:(٢/ ٣٧٥)
(٥) (٢١/ ٣٧٢)
(٦) انظر:(٢٣/ ٢٩٦)
(٧)انظر: (١٨/ ٥٦٥)
(٨) انظر:(١٨/ ٦١٠)و(١٩/ ٦٢٦)
(٩) انظر:(٢٠/ ٣١٦)

أمّا الواعظ الشهير أبو الحسن الغزنوي فقد دأب السلطان والأمراء على زيارته، والاستفادة منه، وكانت زوجة الخليفة قد بنت له رباطاً [1].

وكذلك السهروردي أبو النجيب واعظ بغداد صار له القبول عند الملوك، وكان السلطان يكثر من زيارته، بل بنى له رباطاً، وبنى بجانبه مدرسة [2].

ووصف الذهبي الواعظ الطالقاني بأنه ممن كثر التعصب له من الأمراء والخواص[3]وكان الخليفة المستنصر يحضر مجالسه الوعظية [4].

وكان لابن نجية الواعظ اتصال وثيق بالدولة لاستشارته ونحو ذلك [5].

وليس من شك في أن تلك المكانة الرفيعة التي حظي بها جملة من الوعاظ عند الخلفاء ما كانت لتتهيأ لو لم يكن الخلفاء صالحون في أنفسهم، وبذلك أتاحوا المجال للوعاظ للجلوس معهم، ومناصحتهم.

وكان الخلفاء مع جلوسهم إلى الوعاظ، واستماعهم لهم، كانوا يبادرون بالاستجابة والتوبة، فقد دخل عطاء بن أبي رباح على عبدالملك، وهو جالس على السرير، وحوله الأشراف، وذلك بمكة في وقت حجه في خلافته، فلما بصر به عبدالملك، قام إليه فسلم عليه، وأجلسه معه على السرير، وقعد بين يديه، وقال: يا أبا محمد: حاجتك؟ قال: يا أمير المؤمنين اتق الله في حرم الله، وحرم رسوله فتعاهده بالعمارة، واتق الله في أولاد المهاجرين والأنصار فإنك بهم جلست هذا المجلس، واتق الله في أهل الثغور فإنهم حصن المسلمين، وتفقد أمور المسلمين فإنك وحدك

---

(١) انظر:(٣٢٤/٢٠)

(٢) انظر:(٤٧٦/٢٠)

(٣) انظر:(١٩٠/٢١)

(٤) انظر:(١٩٣/٢١)

(٥) انظر:(٣٩٣/٢١)

المسؤول عنهم، واتق الله فيمن على بابك فلا تغفل عنهم، ولا تغلق دونهم بابك. فقال له: أفعل، ثم نهض وقام، فقبض عليه عبدالملك، وقال: يا أبا محمد إنما سألتنا حوائج غيرك، وقد قضيناها، فما حاجتك ؟ قال: ما لي إلى مخلوق حاجة، ثم خرج. فقال عبدالملك: هذا وأبيك الشرف، هذا وأبيك السؤدد [١].

المطلب الثاني:تولية الوعاظ مناصب مهمة

لم يكتف الخلفاء بالحضور إلى مجالس الوعاظ، أو دعوتهم إلى أماكنهم لوعظهم وتذكيرهم، بل تطور الأمر إلى توليتهم مناصب شرعية مهمة كالقضاء وإمامة الجوامع الكبرى ونحو ذلك.

فقد عُيّن الخليل بن أحمد الواعظ قاضياً لسمرقند[٢].

ورُشح بكر المزني للقضاء لكنه اعتذر[٣].

وعُيّن أبو عمر البسطامي الواعظ قاضياً بنيسابور[٤]

وأبو بكر البكري الواعظ كتب له النظام الوزير توقيعاً بأن يعظ بجوامع بغداد، وأخذ يُنفق عليه[٥].

وعُيّن بلال بن سعد إماماً لجامع دمشق، وكان يعظ في المصلى إلى جانب المنبر حتى يخرج الخليفة[٦].

وابن المُتيَّم عينه المنصور واعظاً في جامعه[٧]، وكذلك ابن العلّاف [٨].

---

(١) انظر:(٥/ ٨٤)
(٢) انظر:(١٦/ ٤٣٨)
(٣) انظر:(٤/ ٥٣٣)
(٤) انظر:(١٧/ ٣٢١)
(٥) انظر:(١٨/ ٥٦٢)
(٦) انظر:(٥/ ٩١)
(٧) انظر:(١٧/ ٢٨٨)
(٨) انظر:(١٧/ ٦٠٨)

وعُيّن الفراوي إماماً لمسجد المطرز[1]، وأبو عثمان الصابوني ظل يخطب بجامع نيسابور نحواً من عشرين سنة [2].

أمّا أبو منصور البروي مع شهرته في الوعظ، فقد عُيّن ليكون مفتياً للشافعية[3]، وأبوالفرج العبّادي الواعظ الدمشقي عُيّن رئيساً للحنابلة في دمشق [4]. والمعمر الحنبلي((كان يؤم بالخليفة المقتدي بأمر الله في التراويح))[5].

وممن رغب فيه الخلفاء كثيراً أبو منصور الأنباري فقد كان واعظاً بجامع القصر، ثم بجامع المنصور، ثم بجامع المهدي [6].

لقد أسهم الخلفاء كما يعرض الكتاب في تهيئة المناخ المناسب للوعاظ، وكلفوهم بالوظائف الدينية المناسبة لهم مما كان له الأثر في مزيد من الانتشار، والتأثير لوعظهم حتى اشتهر عدد من الوعاظ بأنهم اختصوا بالوعظ في مدينة معينة، أو بلد معين، بل أصبح بعضهم لا يُعرف إلا بهذا اللقب ومنهم:صالح المري واعظ أهل البصرة[7]، وأبو عبدالله الأنطاكي واعظ دمشق[8]، وابن قزغلي سبط ابن الجوزي واعظ الشام[9]، ومحمد البلخي واعظ بلخ [10] وغيرهم.

---

(١) انظر:(٦١٧/١٩)

(٢) انظر:(٤٢/١٨)

(٣) انظر:(٥٧٧/٢٠)

(٤) انظر:(٧/٢٣)

(٥) (٤٥٢/١٩)

(٦) انظر:(٢٨١/١٩)

(٧) انظر:(٤٦/٨)

(٨) انظر:(٤٠٩/١١)

(٩) انظر:(٢٩٦/٢٣)

(١٠) انظر:(٥٢٤/١٤)

وأشير هنا إلى أن قلة من الوعاظ كان الموقف منهم مختلفاً، فقد رأى بعض الخلفاء أن لبعض الوعاظ أثراً سلبياً على العامة، فمنع الناس من الجلوس عندهم، مثل أبو المظفر الدوري الواعظ، إذ كانت بينه وبين ابن الجوزي منافرات فمُنع من الوعظ، وأُمر بلزوم بيته[1]، وقد يكون المنع لأمر سياسي خاص بالحاكم، فقد مُنع أبو الحسن الغزنوي الواعظ الشهير لأنه((كان لا يُعظم الخلافة كما ينبغي))[2].

ولمّا قدم أبو عبدالله الزبيدي دمشق وعظ بها، وأخذ يأمر بالمعروف((فلم يحتمل له الملك طغتكين))[3].

وحين دخل السلطان محمود بن سبكتكين الريّ((منع الكل من الوعظ غير أبي حاتم))[4].

* * *

(١) انظر:(٢٢/٧٦)

(٢) (٢٠/٣٢٥)

(٣) (٢٠/٣١٧)

(٤) (١٨/٥٠٧)

المبحث الثاني

مكانة الوعاظ عند العلماء

إن الناظر في أقوال العلماء وأفعالهم تجاه الوعاظ في كتاب"سير أعلام النبلاء"يرى أن الغالب هو تقديرهم، والثناء عليهم، وتوثيق حديثهم، والجلوس في حِلقهم ونحو ذلك؛ وسأتناول تفصيل ذلك في المطالب التالية:

المطلب الأول:ثناء العلماء على الوعاظ

وهذا الثناء هو في الغالب متوجه إلى نفس الواعظ، وما يحمله من فقه وعلم، وراجع أيضاً إلى ما يحويه كلامه من تذكير، وترغيب، وترهيب، ونصح، وتوجيه، عبر موضوعات هادفة، وعبارات صادقة.

يقول السمعاني عن الفراوي:((هو إمام مفتٍ، ما رأيتُ في شيوخي مثله، فقيه الحرم، البارع في الفقه والأصول، الحافظ للقواعد))[1]. وقال عن ابن المؤذن النيسابوري:((كان ذا رأي وعقل وعلم، برع في الفقه))[2]، وقال عن أبي سعد أحمد البغدادي:((ديّن، خيّر، حسن السيرة، صحيح العقيدة على طريقة السلف الصالح، تارك للتكلف))[3]، وقال عنه السمعاني:((وكان على كبر السن حريصاً على طلب الحديث والعلم، مقتبساً من كل أحد))[4]. وقال حُميد الطويل:((كان بكر بن عبدالله المُزني مجاب الدعوة))[5]. وقال ابن حبان عن عطاء الخراساني:((كان من خيار عباد الله))[6].

---

(١) (٦١٨/١٩)

(٢) (٦٢٦/١٩)

(٣) (١٢٣/٢٠)

(٤) (٤٥٤/٢٠)

(٥) (٥٣٣/٤)

(٦) (١٤٠/٦)

وقال الذهبي عن منصور بن عمّار:((كان عديم النظير في الموعظة والتذكير))[1]، وقال عن أبي المظفر السمعاني الواعظ:((كان شوكاً في أعين المخالفين، وحجة لأهل السنة))[2]. وقال الذهبي عن أبي القاسم الشيرازي:((كان على الطريقة المرضية، والخلال الرضيّة، ووفور العلم، وحسن الوعظ، وقوّة الدين))[3]، وقال عن الواعظ البسطامي:((الشيخ الإمام العلاّمة المحدث))[4] ولمّا تولى البسطامي القضاء:((أظهر المحدثون من الفرح ألواناً، وكان وافر الحشمة كبير الشأن))[5]. وقال الخطيب عن ابن سمعون البغدادي الواعظ:((كان أوحد دهره، وفرد عصره، دوّن الناس حِكمه، وجمعوا كلامه، وكان بعض شيوخنا إذا حدّث عنه قال:حدثنا الشيخ الجليل المنطق بالحكمة))[6]. وقال الحاكم عن أبي سعد الخركوشي:((أقول:إني لم أر أجمع منه علماً وزهداً وتواضعاً وإرشاداً))[7]. وكان أبوبكر البيهقي إذا حدّث عن أبي عثمان الصابوني قال:((حدثنا إمام المسلمين حقّاً، وشيخ الإسلام صدقاً، أبوعثمان الصابوني الواعظ أوحد وقته في طريقته....كان حافظاً، كثير السماع والتصانيف، حريصاً على العلم))[8]. وقال ابن عساكر عن أبي الفتوح الإسفرايني:((هو أجرأ من رأيته لساناً وجناناً، وأكثرهم فيما يورد إعراباً وإحساناً، وأسرعهم جواباً، وأسلسهم خطاباً، مع ما رُزق بعد صحة

---

(١) (٩٤/٩)
(٢) (١١٧/١٩)
(٣) (١٠٣/٢٠)
(٤) (٤٥٣/٢٠)
(٥) (٣٢٠/١٧)
(٦) (٥٠٦/١٦)
(٧) (٢٥٦/١٧)
(٨) (٤٢/١٨)

العقيدة من الخصال الحميدة، وإرشاد الخلق، وبذل النفس في نُصرة الحق....لازمت مجلسه فما رأيتُ مثله واعظاً))[1].

إنّ هذه الحفاوة والتعظيم لهؤلاء الوعاظ إنما هو لبيان فضلهم، ودعوة للناس للأخذ منهم، والاستفادة من حديثهم، وحضور مجالسهم.

المطلب الثاني:توثيق العلماء للوعاظ في روايتهم

كان من ضمن الثناء على الوعاظ توثيق أكابر علماء الجرح والتعديل لهم في رواية الحديث ونقله. ومعلوم ما تميز به علماء هذا الفن من إتقان ودقة، وعدم مجاملة في التوثيق والتضعيف؛ مستشعرين بأن الإسناد من الدين، وبه يصحح الحديث أو يضعّف.

قال الخطيب البغدادي–رحمه الله–:((فليس أحدٌ من أهل الحديث يحابي في الحديث أباه، ولا أخاه، ولا ولده))[2]، وقد ضعّف علي بن المديني والده [3]، كما ضعف يحيى بن معين أحد أقرب أصحابه إليه[4]. والنماذج في هذا الباب متعددة، لذا؛ فإن توثيق العلماء للوعاظ إنما هو لفضلهم، وسعة علمهم، وإتقانهم في الحفظ والضبط.

فممن وُثّق من الوعاظ:

١– عدي بن حاتم؛ وثقه ابن معين واحمد وأبو حاتم وابن خزيمة [5].

٢–أبو سعد الأصبهاني؛ وثقه الذهبي والسمعاني [6].

٣–بكر بن عبدالله المزني؛ وثقه الذهبي [7].

---

(١) (٢٠/١٤٠)

(٢) شرف أصحاب الحديث، أحمد بن علي البغدادي الخطيب،تحقيق د.محمد سعير خطي،دار إحياء السنة النبوية، أنقرة، ص٤١

(٣) انظر:المجروحين،أبو حاتم بن حبان البستي،دار الوعي، حلب(٢/١٥)

(٤) انظر:تاريخ بغداد،أحمد بن علي البغدادي الخطيب،دار الكتب العلمية، بيروت،ط١، ١٤٠٤هـ(٥/٣٢٥)

(٥) انظر:(٦/٩٦)

(٦) انظر: (٢٠/١٢٢)

(٧) انظر: (٤/٥٣٢)

٤–بلال بن سعد السكوني؛ وثقه العجلي [١].

٥–موسى بن وردان؛ وثقه أبو داود [٢].

٦–عطاء الخراساني؛ وثقه الدار قطني [٣].

٧–بشر بن السري؛ وثقه ابن معين [٤].

٨–أبو حفص بن شاهين البغدادي؛ وثقه الخطيب [٥].

٩–أبو القاسم بن بشران؛ وثقه الخطيب [٦].

١٠–أبو القاسم الشيرازي؛ وثقه أبو طاهر السلفي [٧].

١١– عبيد بن عمير؛ وثقه الذهبي [٨].

ولا يعني هذا عدم وجود ضعفاء من الوعاظ فإن قلة منهم قد وُصفوا بذلك، شأنهم في ذلك شأن غيرهم، منهم:

١–صالح المرّي؛ قال عنه ابن عدي:((عامة أحاديثه منكرة))[٩]

٢–يوسف بن أسباط؛ قال أبو حاتم:((لا يُحتج به))[١٠]، وقال البخاري:((دفن كتبه، فكان حديثه لا يجيء كما ينبغي))[١١].

---

(١) انظر: (٥/٩١)

(٢) انظر: (٥/١٠٧)

(٣) انظر: (٦/١٤٠)

(٤) انظر: (٩/٣٣٢)

(٥) انظر: (١٦/٤٣٢)

(٦) انظر: (١٧/٤٥٠)

(٧) انظر: (٢٠/١٠٣)

(٨) انظر: (٩/٥٦٥)

(٩) (٨/٤٦)

(١٠) (٩/١٦٩)

(١١) (٩/١٦٩)

٣-أبو منصور العبّادي؛ ضعفه السمعاني [١].

المطلب الثالث: حضور مجالس الوعاظ، وإضفاء الألقاب عليهم.

العلماء كغيرهم من الناس هم بحاجة إلى الوعظ والنصح والتذكير؛ لذا أُثر عن جماعة منهم حضور مجالس الوعاظ.

فكان عبدالله بن عمر-رضي الله عنهما-يحضر مجلس عبيد بن عمر[٢]. وجلس الأوزاعي عند بلال بن سعد وقال:((لم أسمع واعظاً قط أبلغ من بلال بن سعد))[٣] وحضر الليث بن سعد مجلس منصور بن عمّار فأعجبه، وأهداه ألف دينار، وقيل: أقطعه خمسة عشر فداناً[٤]. وقال الحاكم عن أبي محمد البلاذري:((وكان شيخنا الحافظ أبو علي ومشايخنا يحضرون مجلسه))[٥]، وأبو عثمان الصابوني كان يحضر مجلسه الوعظي((أئمة الوقت))[٦]، بل إن الإمام أحمد ذهب إلى حاتم الأصم وطلب منه النصيحة[٧].

وأطلق كبار العلماء على مشاهير الوعاظ ألقاباً تليق بهم، فمما جاء في كتاب"السير":

١-واعظ العصر، لُقّب به أبو الفضل الجوهري [٨]

٢-فقيه الحرم، لُقّب به أبو عبدالله الفراوي [٩].

---

(١) انظر:(٢٠/٢٣٢)
(٢) انظر:(٤/١٥٧)
(٣) (٥/٩١)
(٤) انظر:٩/٩٥)
(٥) (١٦/٣٦)
(٦) (١٨/٤١)
(٧) انظر:(١١/٤٨٩)
(٨) انظر:(١٨/٤٩٥)
(٩) انظر:(١٩/٦١٦)

٣-لقمان هذه الأمة، لُقّب به حاتم الأصمّ [١].

٤- راوية الإسلام، لُقّب به أبو حفص بن شاهين [٢].

٥- جمال الإسلام، لُقّب به أبو محمد رزق الله البغدادي [٣].

٦-شيخ الوعاظ، لُقّب به شيندله الجيلي [٤].

٧-شيخ الحنابلة بدمشق، لُقّب به أبو القاسم الشيرازي [٥].

٨-كبير الوعاظ، لُقّب به أبو منصور الأنباري [٦].

وقدّم بعض العلماء نصائح للوعاظ، من ذلك أن عائشة رضي الله عنها أوصت عبيد بن عمير مرة بأن لا يطيل على الناس في الوعظ فقالت:((خفف فإن الذكر ثقيل))[٧].

* * *

(١) انظر:(١١/٤٨٥)

(٢) انظر:(١٦/٤٣١)

(٣) انظر:(١٨/٦١٠)

(٤) انظر:(١٩/١٧٤)

(٥) انظر:(٢٠/١٠٣)

(٦) انظر:(١٩/٢٨١)

(٧) (٤/١٥٨)

المبحث الثالث

مكانة الوعاظ عند العامة

بلغت مكانة الوعاظ عند كثير من العامة المكانة الرفيعة، والقبول التام، فأقبلوا على مجالسهم، وحضور حلقاتهم بأعداد كبيرة، وأوقات متفاوتة، وفي أماكن متعددة، ولا غرابة إذ إن جلّ الوعاظ كانوا يتجهون بوعظهم وتذكيرهم، ويخصصون مجالسهم للعامة، ومن جهة أخرى كان للوعاظ قبول وتعظيم مشهود عند العامة، بل إن عبارة "القبول" أصبحت هي السمة البارزة عند الترجمة لجلّ الوعاظ.

إن الخطاب الوعظي خطاب يؤثر في العامة بشكل أكبر، ويستجيبون له باعتباره الأقرب إلى أفهامهم، وعقولهم.

قال الذهبي عن أبي سعد النيسابوري: ((ورزق القبول الزائد، وبعُد صيته))[1]، وقال عن ابن الجوزي: ((وأوقع الله له في القلوب القبول، والهيبة...وكانت العامة يعظمونه))[2] وقال عن سبطه: ((له قبول زائد، وسوق نافق بدمشق))[3]، وقال عن أبي الفتوح الغزالي: ((له قبول عظيم في الوعظ))[4]، وقال عن أبي عبدالله الأصبهاني: ((وله قبول عند أهل بلده))[5]، وقال عن أبي علي الفارمذي: ((له قبول عظيم في الوعظ))[6]، وقال عن الطالقاني: ((أحبه العوام))[7]، وقال عن الواعظ الدوري: ((صار شيخ الوعاظ، وكثُر له القبول))[8]، وقال عن ابن الحمامي: ((وكان له القبول التام، والصيت الشائع))[9].

---

(١) (٢٥٦/١٧)
(٢) (٣٧٦/٢١)
(٣) (٢٩٦/٢٣)
(٤) (٣٤٣/١٩)
(٥) (٣٧٩/٢٢)
(٦) (٥٦٥/١٨)
(٧) (١٩١/٢١)
(٨) (٧٥/٢٢)
(٩) (١٦١/٢٢)

ولذا فالحديث في هذا المبحث سيطول مقارنة بما سبق، وسيكون في مطلبين:

المطلب الأول:أسباب إقبال العامة على مجالس الوعاظ

تحلى الوعاظ بالعديد من المزايا التي كان من شأنها إقبال العامة عليهم، سواء أكانت مزايا في نفس الواعظ، أم مما يحيط به من عوامل، وسأجعل تفصيل ذلك في الفروع التالية:

الفرع الأول:العبادة والزهد، وحسن الخلق

امتاز الوعاظ بصفات ميزتهم عن غيرهم، وقربتهم من العامة، يأتي من أبرزها العبادة والزهد، بل إن كل الوعاظ الذين ترجم لهم الذهبي أول ما يصف فيهم هو زهدهم وورعهم وعبادتهم، وتهوينهم من شأن الدنيا، وتحذير الناس من الانشغال بها عن واجباتهم الشرعية. أمّا حسن الخلق الذي يتحلون به فهو من أعظم الأسباب التي تجلب الناس إلى الهداية والاستقامة، بل هي محط أنظار الموعوظين، فالواعظ يصل بحسن خلقه، وسمته، وأدبه أكثر مما يهدي بموعظته.[1]

قال الذهبي عن غلام خليل:((كانت تميل إليه العوام لزهده، وتقشفه))[2]، ويقول في ذكر صفات صالح المريّ:((الزاهد الخاشع...كان شديد الخوف من الله...كان الغالب عليه كثرة الذكر))[3]، وقال عن الحسين الهمداني الملقب بالوصي:((كان أحد الأشراف علماً ونسباً، ومحبة للفقراء، وصحبة لهم....كان يخدمهم أياماً))[4]، بل وصف بلال بن سعد بأنه كان((نفّاعاً للعامة))[5]. وقال السمعاني عن الفراوي:((حسن الأخلاق والمعاشرة،

---

(١) انظر:منهج السلف في الوعظ، سليمان بن صفية،دار المنهاج، الرياض،ط١، ١٤٣١هـ، ص٦٣٢

(٢) (١٤/٦٣)

(٣) (٨/٤٨)

(٤) (١٧/٧٨)

(٥) (٥/٩١)

مكرم للغرباء، ما رأيتُ في شيوخي مثله، وكان جواداً كثير التبسم))[1]، وقال ابن الجوزي عن أبي سعد الأصبهاني:((حج أبو سعد إحدى عشرة حجة...ورأيتُ أخلاقه اللطيفة، ومحاسنه الجميلة))[2]، وقال عنه العكبري:((كان ظاهر الكياسة، يعظ وعظ المشايخ))[3]، وقال عنه السمعاني:((شيخ واعظ متودد متواضع))[4]، وقال عن البسطامي:((ومع فضائله كان حسن السيرة، مليح الأخلاق، مأمون الصحبة، نظيف الظاهر والباطن، لطيف العشرة...لايُعرف أجمع للفضائل منه، مع الورع التام))[5]، وقال الأوزاعي عن بلال بن سعد:((كان من العبادة على شيء لم نسمع أحداً قوي عليه))[6]، وقال الذهبي عن منصور بن عمار:((كان ينطوي على زهد وتأله وخشية، ولوعظه وقع في النفوس))[7]، وذكر الذهبي أن ابن السمّاك كان يدخل في حاجات الفقراء على الأغنياء[8]، وقال عن أبي عثمان الصابوني:((كان مشتغلاً بكثرة العبادات والطاعات، حتى يُضرب به المثل))[9]، وقال عن الطالقاني:((كان كثير العبادة والصلاة، دائم الذكر....كان يختم كل يوم مع دوام الصوم...مقبلاً على الخير))[10]، وقال عن ابن الحمامي:((كان أمّاراً بالمعروف، ناصراً للسنّة، متواضعاً، متوداً، سمحاً، جواداً))[11].

---

(١) (١٩/٦١٨)
(٢) (٢٠/١٢٣)
(٣) (٢٠/٢٩٧)
(٤) (٢٠/٢٩٦)
(٥) (٢٠/٤٥٤)
(٦) (٥/٩١)
(٧) (٩/٩٤)
(٨) انظر(٨/٣٢٩)
(٩) (١٨/٤٢)
(١٠) (٢١/١٩١)
(١١)(٢٢/١٦١)

وكان مما يزيد العامة تمسكاً بالواعظ وقوع أحداث معينة يظهر فيها فضله خاصة ما يتعلق بإجابة الدعاء، ففي أوائل القرن السابع أصاب غرناطة قحط شديد، فطلب الأمير من الواعظ أبي زكريا الأصبهاني الدعاء وتذكير الناس ووعظهم، فلما فعل نزل المطر، وسالت الأودية [1].

وقريب من ذلك ما يحكيه منصور بن عمّار يقول:((لما قدمت مصر، كانوا في قحط، فلما صلوا الجمعة، ضجوا بالبكاء والدعاء، فحضرتني نية، فصرت إلى الصحن، وقلت: يا قوم، تقربوا إلى الله بالصدقة، فما تقرب بمثلها، ثم رميت بكسائي، فقلت: هذا جهدي فتصدقوا، حتى جعلت المرأة تلقي خرصها حتى فاض الكساء، ثم هطلت السماء، وخرجوا في الطين، فدفعت إلى الليث وابن لهيعة، فنظرا إلى كثرة المال، فوكلوا به الثقات ورحت أنا إلى الإسكندرية، فبينا أنا أطوف على حصنها، إذا رجل يرمقني. قلت: مالك ؟ قال: أنت المتكلم يوم الجمعة ؟ قلت: نعم.قال: صرت فتنة، قالوا: إنك الخضر، دعا فأجيب))[2]

الفرع الثاني:الفصاحة والبلاغة وحسن الصوت

اشتهر الوعاظ كما يعرضهم الذهبي بحسن العبارة، وفصاحة الكلمة، ورقتها، وقربها من قلوب المستمعين، ولهذه المزية فوائد على المُتلقي بالتأثير عليه بما يقتضي المقام من المقال في الترغيب والترهيب ونحو ذلك. وحين يراعي الواعظ البلاغة في كلامه فإن وعظه سيزيد تأثيراً وإقناعاً لأنه أقدر على التواصل، وأقرب إلى القبول، ويتحقق له((إيصال المعنى إلى القلب في أحسن صورة من اللفظ))[3].

---

(١) انظر:(٢١/ ٤٩٩)

(٢) (٩/ ٩٦)

(٣) ثلاث رسائل في إعجاز القرآن:للرماني، والخطابي، والجرجاني،تحقيق محمد زغلول،دار المعارف، مصر،ط٣، ١٩٧٦م، ص٧٥

وقد اشتهر الوعاظ أيضاً بحسن الصوت، وترتيله، وتحزينه وما أشبه ذلك.

وممن اشتهر بذلك صالح المري، بل إنه أول من قرأ بالبصرة بالتحزين[1]. وقال الذهبي عن العبادي:((واعظ باهر، حلو الإشارة، رشيق العبارة))[2]. وقال السمعاني عن الواعاظ البسطامي:((فصيح العبارة، مليح الإشارة، في وعظه كثير من النكت والفوائد))[3]، والواعظ عبدالوهاب الشيرازي كان((فصيحاً جهوري الصوت))[4]. وأسهب الحافظ الذهبي في هذا الأمر عند وصفه لوعظ ابن الجوزي فكان مما قاله:((يقول النظم الرائق، والنثر الفائق بديهاً، ويُسهب، ويُعجب، ويطرب، ويطنب، لم يأت قبله ولا بعده مثله...مع الشكل الحسن، والصوت الطيب...وحسن الإشارة، ورشاقة العبارة))[5]، وقال عن بلال بن سعد:((كان بليغ الموعظة...جهير الصوت))[6].

وقال عن يحيى بن عمّار:((كان فصيحاً، مفوهاً، حسن الموعظة))[7]، وقال عن الفارمذي:((هو شيخ الشيوخ في عصره، المنفرد بطريقته في التذكير التي لم يُسبق إليها في عبارته وتهذيبه، وحسن أدائه، ومليح استعارته، ودقيق إشارته، ورقة ألفاظه))[8]، وقال عن ابن المعتمد:((كان رأساً في الوعظ، فصيحاً، عذب العبارة، حلو الإيراد))[9]، وقال عن ابن الحمامي:((كان فصيحاً، حلو العبارة، منقّح الألفاظ))[10].

---

(١) انظر:(٨/ ٤٦)
(٢) (٢٠/ ٢٣٣)
(٣) (٢٠/ ٣٥٤)
(٤) (٢٠/ ١٠٣)
(٥) (٢١/ ٣٧٧)
(٦) (٥/ ٩٠)
(٧) (١٧/ ٤٨٢)
(٨) (١٨/ ٥٦٦)
(٩) (٢٠/ ١٤٠)
(١٠) (٢٢/ ١٦٣)

إنّ فصاحة اللسان، وبلاغة العبارة مع وضوحها هو سبيل لسرعة فهمها، والتأثر بها.

لقد دأب هؤلاء الوعاظ على هذا المنهج اللغوي الرفيع، والتزموا طريقه حينما رأوا نفعه على الموعوظين، مع هجر للتكلف والتقعر في الكلام.يقول ابن النجّار عن أبي النجيب الواعظ:((كان مُطّرحاً للتكلف في وعظه بلا سجع))[1]، ويرى الذهبي أن سبب إقبال العامة على الواعظ الطالقاني هو حلاوة منطقه مع حسن سمته [2].

الفرع الثالث:استثارة العواطف، وترقيق القلوب

اهتم الوعاظ في مجالسهم بإثارة العواطف، وترقيق القلوب بالحث والتخويف، والترغيب والترهيب.

بل أصبح هذا الموضوع هو الأكثر انتشاراً وتردداً في حِلق الوعاظ، ومجالسهم؛ ولاسيما مع كثرة ما يشاهده من تأثر واضح من الحاضرين، فالذهبي يذكر أنه في مجلس وعظي واحد لأبي عبدالله البلخي مات أربعة متأثرين بوعظه [3]، وذكر أنه مات جماعة في حلقة صالح المري أثناء وعظه [4].

لقد كان لكلام الوعاظ تأثير بالغ في قلوب العامة، ولذا وصف الذهبي ابن الجوزي بأن الله أوقع له في القلوب القبول والهيبة[5]، وقال عن الفارمذي:((ولكلامه وقع في القلوب))[6]. وقد أطلق الحافظ الذهبي جملة من الألقاب والصفات على العديد من الوعاظ هي متعلقة بحسن وعظهم، وجودة ترقيقهم للقلوب؛ من ذلك:

---

(١) (٢٠/٤٧٧)
(٢) انظر:(٢١/١٩٠)
(٣) انظر:(١٤/٥٢٣)
(٤) انظر:(٨/٤٧)
(٥) انظر:(٢١/٣٧٧)
(٦) (١٨/٥٦٥)بتصرف يسير

"رأس في الوعظ"، "جاسوس القلوب"، "بحر في الوعظ"، "شيخ الوعظ"، "حامل لواء الوعظ"، "حلو الوعظ"، "آية في الوعظ"، "مليح الوعظ"، "كان يُضرب بوعظه المثل"، "مضروباً برونق وعظه المثل"[1]، إلى غير ذلك من الألقاب الدالة على استعمال الوعاظ للعاطفة؛ إذ هو وسيلة معينة للتأثير وترقيق القلوب ولفت الانتباه، وربما تحدث بعضهم بشيء من النوادر والقصص لأجل ذلك [2].

الفرع الرابع:كثرة أماكن الوعاظ، وتعدد أوقاتهم.

يشير الذهبي-رحمه الله-عبر تراجمه للوعاظ في كتابه"سير ألام النبلاء"بسرد جملة من الأماكن التي جرت عادة الوعاظ عقد مجالسهم بها، وإن كان غالب حلقات الوعظ تُعقد في المساجد، إذ حظي المسجد عن غيره من الأماكن بالمرتبة الأولى، فقد أثرت المواعظ في مساجد بغداد والبصرة والكوفة، وظهرت المواعظ التي تدعو إلى تذكير النّاس بأمور البعث والميعاد والوقوف بين يدي الله؛ فأسهمت هذه الحركة الوعظية في المساجد إلى ظهور العديد من الزهاد والعباد.

فأبو منصور الأنباري كان يعظ بجامع المنصور، ثم بجامع المهدي [3]، وابن الجوزي كان يعظ بجامع الرصافة [4]، وأبو الحسين بن المتيّم كان يعظ بجامع المنصور[5]، وكذلك ابن العلاف[6]، بل إن الذهبي كان دقيقاً في تحديد أماكن الوعظ في المسجد،فبلال بن سعد مثلاً كان مجلسه الوعظي بجانب المنبر بجامع دمشق [7]،

---

(١)(٤٠٩/١١)(١١٦/١٩)(١٣٧/٢٠)(١٤٠/٢٠)(٢٨٧/٢٠)(٣٢١/٢٠)(٣١٥/٢٠)(٢٢٧/٢١)(٢٦٧/٢١)

(٢) انظر:(٩١/٥)(١٧٤/١٩)

(٣) انظر:(٢٨١/١٩)

(٤) انظر:(٣٧٨/٢١)

(٥) انظر:(٢٨٨/١٧)

(٦) انظر:(٦٠٨/١٧)

(٧) انظر: (٩٢/٥)

ومنصور بن عمار كانت حلقته الوعظية في صحن المسجد [1]، وبعضهم كان يعظ تحت قبة النسر بجامع دمشق [2].

ولم يكن المسجد هو المكان الوحيد للوعظ، بل أوضح الذهبي أن ثمة أماكن أخرى، فالواعظ الطالقاني كان يعظ بالمدرسة النظامية [3]، وأبو منصور العبّادي كان يعظ بدار السلطنة[4]، وعبدالقاهر البكري كان يعظ في مدرسته[5]، وأبو المظفر السمعاني يعظ في مدرسة الشافعية [6]، وعبدالهادي السجستاني كان له رباط يعظ فيه [7]

وكذلك أبو الفتوح بن المعتمد [8]. أمّا سبط ابن الجوزي فكان يعظ في مجلسه بسفح قاسيون [9]، وبعضهم ترك المدن لكثرة الواعظين بها وتوجه ليكون واعظاً في القرى مثل علي بن مهدي[10].

أمّا أوقات الوعظ فليس ثمة توسع في الحديث عنها؛ إذ أشار الذهبي إلى شيءٍ يسير، فمهم المكثر منه كعدي بن ثابت مثلاً الذي كان يعظ بعد الفجر وبعد العصر من كل يوم[11]، ومنهم من آثر التخول بالموعظة خشية الإملال فكان الفراوي يعقد مجلساً

---

(١) انظر:(٩/٩٤)
(٢) انظر:(٢١/٤٦٠)
(٣)انظر:(٢١/١٩٠)
(٤) انظر:(٢٠/٢٣١)
(٥) انظر:(٢٠/٤٧٦)
(٦) انظر:(١٩/١٦٦)
(٧) انظر:(٢٠/٢٩٦)
(٨) انظر:(٢٠/١٣٩)
(٩) انظر:(٢٩٦)
(١٠) انظر:(٢٠/٢٢١)
(١١) انظر:(٦/٩٦)

وعظياً واحداً فقط في الأسبوع جعله يوم الأحد[1]، وبعضهم جعله يوم الجمعة[2]. وكان من الوعاظ من يتحين أوقاتاً معينة يكون الوعظ فيها أكثر تأثيراً، وأبلغ وقعاً، فقد كان أبو القاسم العكبري يعظ في الأعزية[3]، وقال أبو علي التميمي:((كُنّا إذا خرجنا معه في جنازة لا يزال يعظ، ويُذكّر ويبكي كأنه مودع أصحابه)) [4]، وكان محمد الدوري لا يعظ إلا عند القبور [5] .

المطلب الثاني:مظاهر إقبال العامة على الوعاظ، وثقتهم بهم.

تبرز مظاهر متعددة أبانها الإمام الذهبي–رحمه الله– يُلحظ منها مدى ثقة العامة بالوعاظ مما يدل على عِظم مكانتهم، وكبير شأنهم، وعلو منزلتهم، وقد ذُكر عن أبي عثمان الصابوني أنه كان ((مقبولاً عند الموافق والمخالف مجمع على أنه عديم النظير))[6]، وقال عن البسطامي:((كان وافر الحشمة، كبير الشأن))[7]، وقال عن يحيى بن عمّار:((كان له جلالة عجيبة بهراة، وأتباع وأنصار))[8] وسأفصل تلك المظاهر في الفروع التالية:

الفرع الأول:كثرة الحضور

إنّ أبرز ما يلفت الانتباه حين تقرأ في تراجم الذهبي للوعاظ في كتابه "السير" هو الأعداد الكبيرة التي كانت تحضر مجالس الوعظ، حتى أصبحت هذه السمة بارزة

---

(١) انظر:(٦١٧/١٩)
(٢) انظر:(٤٧٠/١٨)
(٣)انظر:(٢٩٦/٢٠)
(٤) انظر:(٤٢٢/٨)
(٥) انظر(٧٥/٢٢)
(٦) (٤١/١٨)
(٧) (٣٢٠/١٧)
(٨) (٤٨١/١٧)

لديهم، ويأتي الواعظ الكبير ابن الجوزي في مقدمتهم، يقول عنه الذهبي:((وكان ذا حظ عظيم، وصيت بعيد في الوعظ...لا يكاد المجلس ينقص عن ألوف كثيرة))[1] وقال عن منصور بن عمّار:((وعظ بالعراق والشام ومصر، وبعد صيته، وتزاحم عليه الخلق))[2]، وقال عن أبي منصور الطوسي:((وقدم آذربيجان والجزيرة، ووعظ، ونفق سوقه، وازدحموا عليه لحسن تذكيره))[3]، وقال عن غلام خليل:((كان له جلالة عجيبة، وأتباع كثير))[4]، ويقول الحاكم:((حزرنا مجلس أبي عثمان الحيري فإذا هو زيادة على ألف محبرة))[5]، وكان الزحام عند بعضهم حتى من النساء، ولا غرابة فإن تأثير الوعظ على المرأة ربما أكثر من الرجل لاعتماده على العاطفة وإثارة المشاعر وهي أمور تتفوق فيها المرأة كما لا يخفى، فقد كان يحضر مجلس الواعظ أبي الحسن المصري جمع غفير من النساء[6]، ومن الوعاظ من جلس للوعظ وهو صغير السن كرزق الله بن أبي الفرج فقد جلس للوعظ وهو دون العشرين سنة [7]، بل إنّ أبا عثمان الصابوني كان أول مجلس عقده وهو ابن تسع سنين [8].

لقد كان العامة يفرحون لمجيء الواعظ لبلدهم فتتسارع الجموع الغفيرة لاستقباله، والحفاوة به، وإكرامه، وإنزاله منزلته؛ من ذلك أن أبا المظفر السمعاني((لمّا

---

(١) (٢١/٣٧٨)

(٢) (٩/٩٥)

(٣) (٢٠/٥٣٩)

(٤) (١٣/٢٨٢)بتصرف يسير

(٥) (١٤/٦٥) بتصرف يسير

(٦) انظر:(١٥/٣٨١)

(٧) انظر:(١٨/٦١٠)

(٨) انظر(١٨/٤٢)

قصد نيسابور استقبله الناس استقبالاً عظيماً، فأكرموه، وأُنزل في عزّ وحشمة))[1]، وبالغ أهل سمرقند في إكرام محمد البلخي لما وصل إليها [2]، ولمّا رجع أبو سعد الأصبهاني من الحج((استقبله الخلق وهو على فرس يسير))[3].

ولم يكتف العامة بالحضور في حياته وفي مجالسه الوعظية، بل إن اللافت حقاً هو الحضور الهائل وبأعداد غفيرة لتشييعه يوم وفاته، وقد فصّل الذهبي في وصف ذلك خاصة لمشاهير الوعاظ، يقول -رحمه الله- في وصف جنازة ابن الجوزي-رحمه الله:((غُلّقت الأبواب، وجاء الخلق، وصلى عليه ابنه أبو القاسم لأن الأعيان لم يقدروا من الوصول إليه، ثم ذهبوا به إلى جامع المنصور، فصلوا عليه، وضاق بالناس، وكان يوماً مشهوداً، فلم يصل إلى حفرته بمقبرة أحمد إلى وقت صلاة الجمعة...وما وصل إلى حفرته من الكفن إلا القليل...وأُنزل في الحفرة والمؤذن يقول:الله أكبر، وحزن عليه الخلق، وباتوا عند قبره))[4].ويقول الحاكم عن جنازة أبي على الثقفي الواعظ:((شهدت جنازته، فلا أذكر أني رأيتُ بنيسابور مثل ذلك الجمع))[5]. ويقول الذهبي في وصف جنازة غلام خليل:((وغُلّقت الأسواق، وخرج الرجال والنساء للصلاة عليه))[6]، ويقول في وصف جنازة ابن بشران:((وكان الجمع في جنازته يتجاوز الحدّ، ويفوت الإحصاء))[7]، ويقول عن يوم دفن أبي القاسم الشيرازي:((وكان يوم دفنه مشهوداً من كثرة المشيعين له، والباكين عليه))[8].

---

(١) (١١٧/١٩)
(٢) انظر:(٥٢٣/١٤)
(٣) (١٢٢/٢٠)
(٤) (٣٧٩/٢١)
(٥) (٢٨١/١٥)
(٦) (٦٥/١٤)
(٧) (٣٧٩/٢٢)
(٨) (١٠٣/٢٠)

لقد عُدّت غالب جنائز الوعاظ من الجنائز المشهودة كما وصفها الذهبي: مشهودة من العلماء ومن الحكام والعامة.

الفرع الثاني: استفتاء الوعاظ، وتدوين مصنفاتهم والاستفادة منها

مُنح الوعاظ الثقة من العامة، فتوجهوا لهم بالاستفتاء إذ أن منهم –كما مر– علماء أجلاء، فكان ممن تولى الإفتاء: البسطامي [١]، وأبو عبدالله المديني [٢]، وزرق الله بن أبي الفرج، وكان يُسمى فقيه الحنابلة، وإمامهم [٣]، وأبو النجيب السهروردي [٤]، وأبو منصور البروي [٥] وأبو الفرج الشيرازي [٦]، والمعمر الحنبلي [٧].

أمّا كتابة أقوال الوعاظ، والفرح بمصنفاتهم فكان لها النصيب الوافر.

قال الذهبي عن ابن سمعون: ((دوّن الناس حكمه، وجمعوا كلامه))[٨]، ويقول عن أبي منصور العبادي: ((له كلمات جيدة، وكتبوا من وعظه مجلدات))[٩].

ويذكر الذهبي بأن ابن الجوزي هو أكثر الوعاظ تأليفاً وربما هو الأكثر على الإطلاق، إذ بلغت مصنفاته أكثر من مئتين وخمسين كتاباً[١٠].

---

(١) انظر: (١٠٣/٢٠)

(٢) انظر: (٣٧٩/٢٢)

(٣) انظر: (٦١١/١٨)

(٤) انظر: (٤٧٧/٢٠)

(٥) انظر: (٥٧٧/٢٠)

(٦) انظر: (٧/٢٣)

(٧) انظر: (٤٥٢/١٩)

(٨) (٥٠٥/١٦)

(٩) (٢٣٢/٢٠)

(١٠) انظر: (٣٨٠/٢١) وانظر: قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي، د.ناجية عبدالله إبراهيم، دار زهران، عمّان، ط١، ١٤٠٧هـ.

لقد أكثر الوعاظ في التأليف في شتى العلوم الشرعية، وكان لمصنفاتهم شيوع وانتشار، يقول الذهبي عن أبي سعد النيسابوري:((سارت مصنفاته...له تفسير كبير، وكتاب دلائل النبوة، وكتاب في الزهد))[1]، ولأبي المظفر السمعاني من المصنفات:"البرهان"و"الأمالي"وهما في الحديث، كما صنف في التفسير والفقه والأصول[2]. وصنف أبو الحسن المصري في الزهد كتباً كثيرة [3].

ومن الوعاظ من لم يُصنف إلا في الوعظ تحديداً، مثل ابن المحب النيسابوري [4]

وشيذلة الجيلي [5]، وأبو الفوح العجلي الذي جمع كتاباً سماه"آفات الوعاظ"[6]، وأبو الفرج الناصح المقدسي ألف كتاباً في"تاريخ الوعاظ"[7]

ومع هذه الحفاوة والتقدير، فقد ذكر الذهبي موقفاً مشرفاً للعامة مع أحد الوعاظ وهو أحمد الغزنوي الذي كان في بعض عظه ينال من الصحابةرضي الله عنهم فما كان من العامة إلا أن هجروه [8]، وواعظ آخر باطني المعتقد قام في وعظه بسب الصحابة فرجمه العامة حتى لاذ بالهرب[9].

* * *

(١) (٢٩٠/١٧)

(٢) انظر:(١١٧/١٩)

(٣) انظر:(٣٨١/١٥)

(٤) انظر:(٣٧٨/١٨)

(٥) انظر:(١٧٥/١٩)

(٦) انظر:(٤٠٢/٢١)

(٧) انظر:(٧/٢٣)

(٨) انظر:(١٠٤/٢٢)

(٩) انظر:(١٩٥/٢١)

الخاتمة

وبعد هذه الجولة في هذا المصنف الممتع، فإني أحمد الله تعالى أن يسر إتمام هذا البحث، وهو محاولة للوقوف على مكانة الوعاظ عبر أشهر ما كُتب من مصنفات التراجم، وأضع عدداً من النتائج والتوصيات:

أولاً:أن المكانة الاجتماعية الرفيعة للواعظ لها الأثر البالغ في قبول وعظه، ونجاح نصحه

ثانياً:أبان البحث اهتمام الخلفاء بالوعاظ، وتبجيلهم، وتكليفهم بمهام تليق بهم.

ثالثا:أوضح البحث ما حازه الوعاظ من ثقة عالية لدى العلماء ولاسيما علماء الجرح والتعديل.

رابعاً:أوضح البحث ما للوعاظ من مكانة خاصة ولصيقة لدى العامة تجلت في عدة مظاهر.

خامساً:أوضح البحث أهمية الجانب العلمي والخلقي والتعبدي للواعظ، وأنها سمات لها دور كبير في كسب ثقة المدعوين.

سادساً:أبان البحث شيئاً مما يحتويه كتاب"سير أعلام النبلاء"من نفائس وفرائد.

أمّا التوصيات:

فأوصي بمزيد من الاهتمام بمصنفات التراجم، والتواريخ وإجراء البحوث الدعوية حولها، خصوصاً مؤلفات الذهبي رحمه الله.

ومما اقترح هنا إجراء دراسة بعنوان"الأساليب الدعوية في كتب التراجم" أو دراسات مشابهة لهذه من خلال مصنفات التواريخ، التراجم الشهيرة الأخرى مثل"المكانة الاجتماعية للواعظ من خلال كتاب تذكرة الحفاظ"أو كتاب تاريخ بغداد ونحو ذلك.

وكـذلك أوصـي بدراسـات تعنـى بعوامـل التواصـل بـين الـواعظ والموعـوظ فـي المجتمعـات، مثـل: دراسـة ميدانيـة عـن:"الـصورة الذهنيـة للـواعظ لـدى أفـراد المجتمـع السـعودي".

وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

* * *

المراجع

١- تاريخ بغداد، أحمد بن علي البغدادي الخطيب، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٠٤هـ.

٢- التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن عاشور، الدار التونسية للنشر، ١٩٨٤م.

٣- تلبيس إبليس أبو الفرج عبدالرحمن بن علي بن الجوزي، دار الفكر، بيروت، ط١، ١٤٢١هـ.

٤- ثلاث رسائل في إعجاز القرآن:للرماني، والخطابي، والجرجاني، تحقيق محمد زغلول، دار المعارف، مصر، ط٣، ١٩٧٦م.

٥- سير أعلام النبلاء، شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي، تحقيق شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط٩، ١٤١٣هـ.

٦- شرف أصحاب الحديث، أحمد بن علي البغدادي الخطيب، تحقيق د.محمد سعير خطي، دار إحياء السنة النبوية، أنقرة.

٧- طبقات الشافعية الكبرى، تاج الدين السبكي، تحقيق د.محمود الطناحي، دار هجر، الدمام، ط٢، ١٤١٣هـ.

٨- فوات الوفيات، محمد بن شاكر الكتبي، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، ط١، ١٩٧٣م .

٩- قراءة جديدة في مؤلفات ابن الجوزي، د.ناجية عبدالله إبراهيم، دار زهران، عمّان، ط١، ١٤٠٧هـ.

١٠- المجروحين، أبو حاتم بن حبان البستي، دار الوعي، حلب.

١١- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين، محمد بن أبي بكر أيوب الزرعي ابن قيم الجوزية أبوعبدالله، تحقيق محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ.

١٢- معجم الشيوخ له، تحقيق محمد الحبيب، مكتبة الصديق، الطائف، ط١، ١٤٠٨هـ

١٣- الحافظ شمس الدين الذهبي، للدكتور حسن شيمساني، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠م.

١٤- معجم مصطلحات العلوم الاجتماعية، أحمد زكي بدوي، مكتبة لبنان، بيروت، ط٥، ١٩٧٨م.

١٥- منهج السلف في الوعظ، سليمان بن صفية، دار المنهاج، الرياض، ط١، ١٤٣١هـ.

١٦- الوافي بالوفيات، صلاح الدين الصفدي، دار إحياء التراث، بيروت، ط٢، ١٤٢٠هـ.

* * *

Arabic References

1. Al-Baghdadi, Ahmad A. *Sharaf As'hab al-Hadith*. Ed. Dr. Muhammad S. Khati. Ankara: Dar Ihya' as-Sunah an-Nabawiyyah. Print.
2. Al-Baghdadi, Ahmad A. *Tarikh Baghdad*. 1st ed. Beirut: Dar al-Kutub al-'Ilmiyyah, 1404 H. Print.
3. Al-Basti, Abu Hatim H. *Al-Majrouhin*. Aleppo: Dar al-Wa'i. Print.
4. Al-Dhahabi, Muhammad A. *Siyar A'lam an-Nubala.* Ed. Shu'aib al-Arnaout et al. 9th ed. Bierut:ar-Risalah Foundation, 1413 H. Print.
5. Al-Jawzi, Abdulrahman A. *Talbis Iblis.* 1st ed. Bierut: Dar al-Fekr, 1421 H. Print.
6. Al-Kutubi, Muhammad S. *Fawat al-Wafiyyat*. Ed. Ehsan Abas. 1st ed. Beirut: Dar Sader, 1973 G. Print.
7. Al-Rumani, Al-Khatabbi, and al-Jurjani. *Thalathu Rasael fi I'Jaz al-Quran*. Ed. Muhammad Zaghloul. 3rd ed. Egypt: Dar al-Ma'aref, 1976 G. Print.
8. Al-Sabaki, Taj ad-Din. *Tabaqat ash-Shafiyyah al-Kubra*. Ed. Dr. Mahmoud at-Tanahi. 2nd ed. Damam: Dar Hajr, 1413 H. Print.
9. AL-Safadi, Salah ad-Din. *Al-Wafi Bi al-Wafiyat*. 2nd ed. Beirut: Dar Ihya' at-Turath, 1420 H. Print.
10. Al-Shafe'i, Ali H. *Mu'jam ash-Shuiyoukh*. Ed. Muhammad al-Habib. 1st ed. Taif: Maktabat as-Sediq, 1408 H. Print.
11. Ashur, Muhammad T. *Al-Tahrir wa at-Tanwir*. Al-Dar Al-Tunsiyyah for publishing, 1984 G. Print.
12. Badawi, Ahmad Z. *Dictionary of Social-Sciences Terminology. 5th ed.* Beirut: Maktabat Lubnan, 1978 G. Print.
13. Ibn Al-Qaiyym, Muhammad A. *Madarij as-Salekien bain Manazel Eiak Na'bud wa Eiak Nasta'in.* Ed. Muhammad H. al-Feqi. 2nd ed. Beirut: Dar al-Ketab al-Arabi, 1393 H. Print.
14. Ibrahim, Najia A. *Qira'ah Jadidah fi Mu'alafat ibn al-Jawzi*. 1st ed. Dar Aman, 1407 H. Print.
15. Safiya, Sulaiman. *Manhaj as-Salaf fi al-Wa'azh*. 1st ed. Riyadh: Dar al-Menhaj, 1431 H. Print.
16. Shimsani, Hassan. *al-Hafizh Shams ad-Din ath-Thahabi*. 1st ed. Beirut: Dar al-Kutub al-'Elmiyyah, 1990 G. Print.

* * *

The Social Status of the Preacher in Al-Hafezh Al-Dhahabi's Book "Biographies of Prominent Nobles "

Dr. Abdullah ibn Ibrahim Al-Tawil
Associate Professor
Department of Da'wah
Al-Imam Muhammad ibn Saud Islamic University

Abstract:

Biographies are among the most important research sources to retrieve the history of preachers, and benefit from their experiences, sermons, and relationship with others. The book 'Biographies of Prominent Nobles"is one of the most prominent of these works, which includes many preachers' biographies.

The researcher has tried to highlight the high social status of the preachers throughought this book, the great impacts they had on rulers who have shown their appreciation and have assigned appropriate positions to them; as well as what preachers have acquired of high level of confidence among scholars in addition to the special social status among the public. The scientific, moral and worship aspects have a great impact and role in winning the confidence of the rulers, scholars, and the public. The book still needs further research and studies on Da`wa for all the benefits it can offer in this regard.

Keywords: Preacher, Da'wa, preaching, 'Biographies of Prominent Nobles'.